الفصل الخامس

الشعراء المولدون

العصر الثاني

(١) ميزة الشعر

لم يكن الأتراك أهل حضارة وعرفان ليحملوا إلى العربية علومهم وآدابهم فيجعلوا فيها أثرًا بينًا كما جعل الفرس من قبلهم، ولم يعنوا بدراسة لغة العرب وأدبهم عناية أهل فارس، فيخرج منهم شعراء وكتَّاب يحدثون في الأدب أحداثًا طريفة بليغة؛ لذلك بقيت ميزة الشعر على حالها ولم يتغير شيء من تلك الحضارة الجديدة التي زفَّها الفرس والروم إلى العرب. ولا عبرة في التبدل السياسي، وقيام نفوذ الأتراك على أنقاض نفوذ الفرس؛ لأن البحث يدور على التاريخ الأدبي لا على التاريخ السياسي، والحوادث السياسية لا تكون سببًا دائمًا لتطور الآداب. ولكن الذين وضعوا نظام البكالوريا اللبنانية حاولوا أن يجدوا فرقًا بين العصر الأول والثاني، فاختلط عليهم الأمر، فتكلفوا للعصر الثاني خصائص تكاد لا تختلف عن خصائص العصر الأول، فجعلوا ميزة الشعر: «المدح والهجاء والوصف.» مع أن هذه الأنواع اشترك فيها العصران فلم يختلف فيها أحدهما عن الآخر. وليس في زعمهم أن في العصر الأول شعر القصور أو الشعر المترف، ما يدعو إلى تمييز العصر الفارسي من العصر التركي، ففي شعر ابن المعتز والبحتري وابن الرومي من الترف ومدح أصحاب القصور ما في شعر بشار وأبي نواس وأبي تمام.

لذلك نرى أن فصل العصر الثاني عن الأول لا مسوِّغ له. ونحن لم نجعلهما عصرين إلا مجاراة لنظام البكالوريا، ثم لأننا أفردنا لكل عصر لمحة تاريخية خاصة به.

(٢) البحتري ٨٢٠–٨٩٧م/٢٠٥–٢٨٤هـ

(٢-١) حياته

هو الوليد بن عُبَيْد،[١] عربي صريح ينتهي بأبيه إلى طيء، وبأمه إلى شيبان،[٢] ويلقب بالبحتري نسبة إلى بُحتر أحد أجداده. ويكنى بأبي عبادة وأبي الحسن، والأولى أشهر.

وكانت ولادته في بادية مَنْبِج[٣] وبها نشأ نشأة عربية خالصة. ونظم الشعر وهو حدث. وكان يمدح في أول أمره أصحاب البصل والباذنجان. ثم أحب عَلْوة بنت زريقة الحلبية فشبَّب بها، وشهرها بشعره.

على أن نباهته لم تبتدئ إلا بعد اتصاله بأبي تمام، وتخرجه عليه. واختلفت الروايات في حقيقة هذا الاتصال فقيل إن البحتري صار إلى حبيب وهو بحمص فعرض عليه شعره فاحتفل به أبو تمام، وسأله عن حاله، فشكا إليه خلَّةً،[٤] فكتب إلى أهل معرَّة النعمان يشهد له بالحذق، ويوصيهم بإكرامه، فأكرموه بكتابه، ووظَّفوا له[٥] أربعة آلاف درهم، فكانت أول مال أصابه.

وقيل بل كان أبو تمام في مجلس أبي سعيد الطائي، فدخل البحتري وهو يومئذ حديث السن، فأنشد قصيدة امتدح بها أبا سعيد، فحفظ أبو تمام أكثرها وادَّعاها، فصدق أبو سعيد دعواه لمكانته في الشعر، ووبخ البحتري لمدحه إياه بشعر مسروق. فخرج البحتري يجر رجليه. ولكن ما أبعد حتى تبعه الغلمان وردوه، وأقبل عليه أبو تمام وقال له: «الشعر لك يا بني، والله ما قلته قط، ولا سمعت به إلا منك. ولكنني ظننت أنك تهاونت بموضعي، فأقدمت على الإنشاد بحضرتي، من غير معرفة كانت بيننا، تريد مضاهاتي ومكاثرتي. حتى عرَّفني الأمير نسبك وموضعك. ولوددت أن لا تلد طائية إلا مثلك.»

ورويت هذه الحادثة على وجه آخر لم يدع فيه أبو تمام القصيدة، بل اهتز لها طربًا، وقبَّل الغلام الشاعر بين عينيه، وجعل له جائزته، ثم لزمه البحتري واقتدى به وأخذ عنه.

والبحتري كغيره من الشعراء لا يرى موردًا عذبًا لشاعريته إلا دار الخلافة أبغداد كانت أم سر من رأى؛ لذلك قصد إلى بغداد في خلافة الواثق[٦] وامتدح وزيره ابن الزيات بقصيدة يقول فيها:

دَقَّ فهمًا وجلَّ حِلمًا فأرضى   الله فينا والواثقَ بنَ الرشيدِ

ومدح الحسن بن وهب، وأخذ منه الجوائز، وكان الحسن يتولى ديوان الرسائل من قبل ابن الزيات. وامتدح غيرهما من الأمراء والقواد، ولكنه لم يتصل بالواثق، ولا اتخذ العراق له دارًا إلا بعد أن بويع للمتوكل،[٧] فاختص بخدمته وخدمة وزيره الفتح بن خاقان، ولقي عندهما الحرمة حتى قتلا معًا على مشهد منه، فحزن عليهما، واسودت العراق في عينيه، فعاد إلى منبج. على أنه كان يختلف إلى بغداد وسرَّ من رأى يمدح فيهما الخلفاء والأمراء، ولكنه لم يختص بواحد منهم، ولعله اتصل بالمعتز[٨] أكثر من غيره، فكثرت مدائحه فيه، غير أنه لم يجعل العراق في عهده مقامًا له كما جعلها في عهد المتوكل. ولم يستقدم إليها عيلته بل تركها في منبج، لذلك نراه يلتمس من المعتز إذن شهرين ليرى صبيته، ويصلح خلة ضيعة يأمر له بها، قال:

هل أطلُعَنَّ على الشآم مبجَّلًا   في عز دولتك الجديد المُونِقِ[٩]
فأرُمَّ خِلَّةَ ضيعة تصف اسمها   وأُلِمَّ ثَمَّ بصبية لي دَرْدَقِ[١٠]
شهران إن يسَّرْت إذني فيهما   كفلًا بأُلفة شملي المتفرقِ

ولبث البحتري يتنقل بين العراق والشام حتى أواخر خلافة المعتمد،[١١] وهو آخر خليفة اتصل به ومدحه. ولم تستقرَّ به منبج إلا في خلافة المعتضد[١٢] فأقام فيها لا يبرحها حتى مات، وكانت وفاته بالسكتة.

صفاته وأخلاقه

قال صاحب الأغاني: «كان البحتري من أوسخ خلق الله ثوبًا وآلة، وأبخلهم على كل شيء. وكان له أخ وغلام معه في داره فكان يقتلهما جوعًا، فإذا بلغ منهما الجوع أتياه يبكيان، فيرمي إليهما بثمن أقواتهما مضيقًا مقترًا ويقول: كلا! أجاع الله أكبادكما، وأطال جهادكما!» ا.هـ.

على أنه لا يسعنا أن ننقل هذه الرواية إلا في شيء من التحفظ؛ لأن دراستنا لشعر البحتري أطلعتنا على ناحية بيِّنة من حياته وأخلاقه، فأرتنا فيه رجلًا حريصًا على التكسب وجمع المال، حتى إنه وقف شعره على المدح، وتاجر بغلام له فكان يبيعه ثم يشبب به ويمدح من اشتراه، فيستعيده بشعره. وما زال كذلك حتى مات الغلام وكُفي الناس أمره. وقد أفاد البحتري ثروة حسنة من شعره، فجرِّيت عليه الأرزاق، وامتلك الضياع فكان يتعهدها، ويرمُّ خلاتها في كثير من الاعتناء، فلقد كان ممن يتعبدون للمال، ولا يقع لهم فتور عن اكتنازه. ولكنه لم يكن يفتر على نفسه، ويبخل بالنفقة على ملاذه. وهو صاحب لهو ولذة، يشرب الخمرة، ويحضر مجالس الطرب، ويعبث ويفتك ويمجن. على أننا لا نشك في أن البحتري كان بخيلًا على الناس، وأنه صحبهم ليأخذ منهم لا ليعطيهم:

صحبتُ أناسًا أطلب المال عندهم ... فكيف يكون المال مُطَّلَبًا عندي؟!

ولكنه لم يكن كزًّا شحيحًا كما أفرط بعض الرواة في وصفه. وربما آنست فيه أريحية واهتزازًا للمعروف إذا علمت أنه مدح طاهر بن محمد[١٣] الهاشمي. وكان طاهر قد أنفق ماله على الشعراء والزوار، وركبته الديون فقعد في داره، فلما وصلت إليه مدحة البحتري، بكى وقام فباع داره بثلاثمائة دينار، وأخذ صرة وأنفذ منها مائة إلى البحتري. وكتب إليه معها رقعة فيها أبيات يعتذر فيها من قلة العطاء لضيق ذات يده، فلما وصلت الرقعة والدنانير إلى البحتري ردها على صاحبها، وكتب إليه أبياتًا يقول فيها:

غير أني رددت بِرَّك إذ كا ... ن رِبًا منك والربا لا يحلُّ[١٤]
وإذا ما جزيت شعرًا بشعرٍ ... قُضِيَ الحقُّ والدنانير فضلُ[١٥]

فهذه عاطفة طيبة لا تدل على خساسة ودناءة.

ومن صفاته أنه كان شديد الغرور بشعره، كثير الاعتداد بنفسه حتى ليتبغض في إنشاده زهوًا وإعجابًا، فقد روي أنه كان إذا أنشد أخذ يتشادق ويتزاور[١٦] في مشيته مرة جانبًا ومرة القهقرى. ويهزُّ برأسه مرة وبمنكبه أخرى. ويشير بكمه، ويقف عند كل بيت ويقول: «أحسنت والله!» ثم يقبل على المستمعين، فيقول: «ما لكم لا تقولون لي

أحسنت! هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله!» على أن ذلك لا يعني أن البحتري كان ثقيل الظل مقيتًا، فشعره يدل على خفة روح ولطف ودعابة.

ويجمع الرواة في شاعرنا صفتين متناقضتين وهما الوفاء والخيانة، ومن الغريب أن يجتمع النقيضان في واحد فيكون تارة برًّا وفيًّا، وطورًا غدَّارًا خئونًا، فبينا نسمع المرزباني يقول في موشحه إنه لم ير أقل وفاءً من البحتري لأنه هجا أربعين رئيسًا ممن مدحهم، ونقل نحوًا من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظه منهم عليها إلى مدح غيرهم، وأمات أسماء من مدحه أولًا، نرى صاحب الأغاني يحدثنا بوفائه لأستاذه فإذا هو يرد على من يقول له: أنت أشعر من أبي تمام: «كلا والله إن أبا تمام للرئيس والأستاذ. والله ما أكلت الخبز إلا به.» ويحدثنا بوفائه لأبي سعيد الطائي وابنه واختصاصه بهما حتى إنه رثاهما بعد مقتلهما فكانت مراثيه فيهما أجود من مدائحه. ولنا أيضًا بيِّنة على وفائه قصيدته التي رثى بها المتوكل وهجا المنتصر[١٧] وهدده بالقتل فعرض نفسه لسخطة كادت تودي بحياته، ولو لم يشفع له أحمد بن الخصيب — وزير المنتصر — ويسترضي الخليفة الجديد، لما عفا عنه وأجازه على قصيدة مدحه بها وأوصلها إليه الوزير. ولكن البحتري كافأ ابن الخصيب شر مكافأة يوم نكبة المستعين،[١٨] فإنه حرض الخليفة على قتله واستصفاء أمواله، وفي ذلك يقول:

والرأي كل الرأي في قتلِهِ　　بالسيف واستصفاء أموالِهِ

فهذه الأخبار المتناقضة تجعلنا في حيرة من أمر هذا الرجل فنقف موقف الشك بين خيانته ووفائه، لا نقطع بأنه خئون، ولا نقطع بأنه وفي. غير أننا نرجح الجانب الأول؛ ذلك أن البحتري لم يخلص للمتوكل والفتح ابن خاقان ولم يذكرهما بخير بعد موتهما إلا لأنه فقد بهما جنته في الحياة الدنيا، فقد كان يرتع في جنابيهما في بحبوحة من العيش الخضيل، فلما هلكا وأحسَّ بنجم سعوده يغور في إثرهما صرخ صراخ اليائس المستميت، وبكى على حظه في رثائه للمتوكل، ولم يفطن إلى أنه قد عرَّض بنفسه إلى التهلكة في شتمه المنتصر. ولكنه ما ثاب إلى رشده حتى صمت واعتصم بالتقية، ثم سعى إلى استرضاء الخليفة الجديد. غير أنه لبث يذكر المتوكل والفتح في كل سانحة وبارحة؛ لأنه لم يجد بعدهما خليفة ولا وزيرًا يملأ الفراغ الذي أحدثاه في نفسه. ومدح بعدهما طائفة من الخلفاء والأمراء وتكسَّب منهم دون أن يخلص الولاء لأحدهم؛ لأنه كان يتوقع أبدًا تبدل الولاة والملوك، فصاحَبَهم على دخل يمدحهم في عزهم، ويتنكر لهم

في نكبتهم، وهو إنما يماشي زمانه في ذلك. وقد وُجد في زمن قل فيه الوفاء وكثر الغدر والرياء. والزمان كأهله وأهله كما ترى.

وليس وفاؤه لأبي سعيد وابنه إلا لأنهما من طيء وكانا يعطفان عليه، ويحسنان صلته، فأحبَّهما حبَّ النسيب لنسيبه، وحب المنتفع لمن ينتفع منه؛ فمدحهما وتعصَّب لهما، ورثاهما أحسن رثاء. وأما وفاؤه لأبي تمام فوفاء التلميذ لأستاذه والقريب لقريبه. ولكن لا نجد له قصيدة في رثائه تظهر قيمة هذا الوفاء إلا بعض أبيات رثى بها دعبلًا وذكره فيها معه.

وفي البحتري خاصة ظاهرة في شعره وهي حب الوطن، فإنه كثيرًا ما يحنُّ إلى منبج وحلب، ويحسب نفسه غريبًا في العراق، مع أن شهرته لم تقم إلا فيه، وثروته لم تجمع إلا هناك.

وكان يتعصب لليمن عمومًا ولطيء خصوصًا، ولكنه لم يكن مفرطًا في تعصبه، وربما لمحت فيه شيئًا من التعاجم؛ لأنه كان مفتونًا بحضارة الفرس، ولأنه وُجد في عصر كانت السيادة فيه للموالي لا للعرب، فضعفت فيه العصبية كما ضعفت في كثيرين من أمثاله.

على أنه كان شديد التعصب للإسلام، وربما نزع إلى التشيع فتسمعه يمدح الطالبيين، ويهجو علي بن الجهم لتعرضه لهم بالهجاء. ولكنه كان يتحفظ ولا يسرف في إظهار تشيعه، وخصوصًا في عهد المتوكل، فإنه لما جاء العراق أراد أن يتكنى بأبي الحسن بدلًا من أبي عبادة ليتشبه بعلماء الشيعة، فرأى من المتوكل كرهًا شديدًا للعلويين فعدل إلى كنيته الأولى، وكتم تشيعه، أو تركه، ولكنه لم يقل هُجرًا في الطالبيين.

آثاره

ديوان شعر أكثره في المدح، وأقله في الهجاء والرثاء. وفي مدحه غزل كثير، ووصف مختلف الوجوه والأنواع. وبقي شعر البحتري متفرقًا حتى جمعه أبو بكر الصولي، ورتَّبه على الحروف. وجمعه علي بن حمزة الأصفهاني ورتبه على الأنواع. وشرحه أبو العلاء المعري، وسماه عبث الوليد. وطبع هذا الديوان بالأستانة في جزءين كبيرين، ثم طبع في بيروت مشكولًا، ومشروحًا بعض ألفاظه. وكلتا الطبعتين لا ترتيب فيهما، وليس لهما فهرست تُعرف به القوافي، وفيهما قصائد مكررة لم ينتبه إليها من جمعها.

وعُني البحتري بالتأليف كأستاذه فجمع كتاب الحماسة معارضة لكتاب أبي تمام، اختاره من أشعار العرب للفتح بن خاقان، وجعله مائة وأربعة وسبعين بابًا، ضمَّنها معظم المعاني الأدبية التي تناولها الشعراء المتقدمون.

وهذه الأبواب على كثرتها صغيرة لا يتجاوز بعضها الصفحة الواحدة. ولم يتقيد فيها البحتري بأبواب الشعر المعروفة، بل نظر فيها إلى الأغراض والمعاني، فجاءت جديدة في نوعها. مثال ذلك: الباب الأول فيما قيل في حمل النفس على المكروه. الباب الخامس عشر: فيما قيل في استطابة الموت عند الحرب. الباب الثاني والستون: فيما قيل في ذم عاقبة البغي والظلم إلخ ... وقد خلت من الغزل والفحش والمجون.

وتشتمل حماسة البحتري على أقوال لنحو ستمائة شاعر من الجاهلية وصدر الإسلام، وفيهم نفر أدركوا بني العباس كيحيى بن زياد، وصالح بن عبد القدوس، وبشار، ومطيع بن إياس. وطُبعت في بيروت ومصر. وله أيضًا كتاب معاني الشعر لم يصل إلينا.

(٢-٢) ميزته

البحتري طائر غِرِّيد سبح بأنغامه في أفق علوي، خصب الخيال، متنوع الأصباغ، فأشرف على جلال الطبيعة وجمالها، وحوَّم فوق جبالها ومروجها، وأنهارها وغيطانها، ورفرف على زخارف المدنية وعمرانها، فعلقت جميع هذه الصور بقوادمه وخوافيه، فصبغتها بأشكال من الرسوم والتلاوين.

ولا تقوم شاعرية البحتري على المدح أو الغزل أو الرثاء وإن برع في كثير منها، وإنما تقوم على جمال الفن وانطلاق الخيال، وإتقان الوصف والتصوير. ونحن سنعنى بدراسته من جميع نواحيه حتى تتكشف خصائصه التي يمتاز بها في أنواع الشعر وفنونه.

مدحه

وقف البحتري شعره على المدح لا يلتفت لفن غيره إلا غرارًا، فغير عجيب أن يجيد هذا الفن، ويبرع فيه. وله من أهبته شاعرية فياضة، ونزوع شديد إلى التكسب والاستجداء.

وأدرك البحتري عشرة خلفاء من المأمون إلى المعتضد. ولكنه لم يمدح غير ستة، وهم المتوكل بن المعتصم، والمنتصر بن المتوكل، والمستعين بن المعتصم، والمعتز بن

المتوكل، والمهتدي بن الواثق، والمعتمد بن المتوكل. وأكثر مدائحه في المتوكل ثم في ابنه المعتز.

ومدح من الأمراء والوزراء طائفة كبيرة، منهم الفتح بن خاقان وزير المتوكل، والحسن بن مَخلَد وزير المعتمد، وإبراهيم بن المدبِّر من كبار رجال الدولة. وآل سهل، وإسماعيل بن بلبل الشيباني، وأنسباؤه أبو سعيد الثغري وابنه يوسف، وآل حُميد الطوسي وسواهم. وأحسن مدائحه، وأصدقها عاطفة، ما قاله في المتوكل والفتح وأبي سعيد. وهو إذا مدح المتوكل مدح خليفة في عز دولته، وقوَّة سلطانه، لا سيطرة للموالي عليه، كسيطرتهم على من جاء بعده من الخلفاء، فترى الشاعر يمعن في وصف جلال الملك ووقاره. ويشبه المتوكل بالنبي، ويستفيض بذكر تقواه، وتعزيزه للدين، وإقامته أحكام السنَّة. ويجعل له زلفة عند الله، فإذا احتبس المطر استسقى للمسلمين فينهلُّ الغمام:

لما تعبَّد مَحْلُ الأرض واحتبست غُرُّ السحائب حتى ما نُرَجِّيها[١٩]
وقمت مستسقيًا للمسلمين جرت غُرُّ الغمام وحَلَت من عَزَالِيها[٢٠]

ويظهر أن المطر احتبس يومذاك فصلى المتوكل صلاة الغيث، ثم أمطرت السماء فجعلها البحتري من كرامات ممدوحه. ويذكر له كرامة أخرى وهي طاعة الوحوش له وسيرها في ركابه:

وطاعة الوحش إذ جاءتك من خرِقٍ أحوى وأدمانةٍ كُحلٍ مآقيها[٢١]
إن سرتَ سارت وإن وقَّفتَها وقفتْ صُورًا إليكَ بألحاظٍ تُوالِيها[٢٢]

وقد يعرض لسياسة الخلافة في مدحه المتوكل، فيؤيد حق العباسيين، ولكنه لا يهجو الطالبيين مع علمه بكره الخليفة لهم؛ لأن هواه فيهم، ولم يجاهر بميله إليهم إلا بعد مقتل المتوكل وقيام المنتصر. وكان المنتصر ينكر على والده اضطهاده العلويين، وإذنه للناس بلعن علي، ولطالما عارضه في ذلك فلقي منه التحقير والطرد، فلما مدحه البحتري بعد أن ولي الخلافة، ذكر عطفه على العلويين، وجاهر بتفضيل علي على عمر قال:

وإن علـيًّـا لأولـى بـكـم وأزكى يدًا عندكم من عُمَرْ

ولم يعرض بعد المتوكل لسياسة الخلافة إلا في الندرى؛ ذلك بأنه لم يخلص الحب لخليفة إخلاصه إياه للمتوكل. ثم إنه رأى ضعف الخلائف الذين توالوا بعد المتوكل، فعلم أن من العبث الكلام على سياسة الخلافة بين العباسيين والطالبيين ما دام الأمر فيها للموالي. وأصبح لا يمدح خليفة إلا مدح الموالي معه وازدلف إليهم. ويكثر ذكره لهم في مدح المعتز، ولعله كان يشفق عليه من سطوتهم، أو يخشى على نعمته أن تزول بزواله، وهو قد اتصل به وحظي عنده أكثر منه عند غيره، فإذا مدحه أشاد بذكرهم وجعلهم جند الله لتأييد الخليفة ونصرته، واعتذر عنهم إذا أساءوا إليه أو أثموا:

وَلِيَتْ نصره الموالي فأعطتْهُ عُلُوَّ السِّماك أو هو أعلى
أما الموالي فجند الله حَمَّلَهُمْ أن ينصروك فقد قاموا بما احتملوا[٢٣]

وضُعف الخلفاء حمله على استنهاض هممهم، فكان يذكِّرهم آباءهم العظام، ويزعم أنهم متشبهون بهم، سائرون على خطاهم، كقوله في مدح المهتدي:

له عزمة ما استبطأ المُلك نُجْحَها ولا استعتب الأيامَ وَرْيُ زِنادِها[٢٤]
رشيدية في نجرها واثقيَّةٌ يرى الله إيثار التُّقى من عَتَادِها[٢٥]

وإذا رأى بادرة عزم من أحدهم تنفَّس الصعداء، وشاقه أن تستعيد عزة الملك سابق عهدها، فنسمعه يقول بعد أن فتك المعتز ببُغا:

فاليوم عاوَدَتِ الخلافةُ عِزَّها وأضاء وجه الملك بعد ظلامِ
أضحى بُغاءُ وأقربوه وحزبُهُ وكأنهم حُلْمٌ من الأحلامِ

والبحتري يصدِّر مدحه على الغالب بالغزل. وقلما عني بحسن التخلص، بل ينتقل وثبًا، ويقتضب اقتضابًا كأستاذه أبي تمام. ولكنه يختلف عنه بأنه أقل غلوًّا منه، وأشد تزلفًا لممدوحه، وأكثر تحدثًا بنعمه. وشعره كشعره حافل بالفوائد التاريخية، ففيه أخبار الوقائع والحروب التي جرت في أيامه، وأخبار الذين خرجوا على العباسيين من

علويين وسواهم، وفيه غير ذلك من الحوادث التي تُظهر لنا اضطراب الحالة السياسية في ذاك العصر.

وصفه

والوصف هو الذي رفع منزلة البحتري، وأحلَّه في الطبقة الأولى؛ فقد أوتي من قوة المخيلة وروعة التصور ما جعله يتناول الأشياء المادية فيرسمها بشعره لمحًا، فيخرج لها صورًا دقيقة بارعة الفن. وقد يرتفع عن المرئيات فيمعن في سماء الخيال، ثم يعود بمختلف التصاوير والتهاويل، ملؤها حركة وحياة، فتحسُّ كأنك تسمع جرسها، وترى خطراتها وتلمسها بأناملك العشر.

وكان لنشأة الشاعر في بادية منبج يد في تصفية خياله، فشبَّ على ما يشب عليه أهل البداوة من دقة الحس، وصدق المخيِّلة، ورفَّت عليه منبج بجمالها الطبيعي الذي تغنى به الشعراء، فاستمدَّ منها خياله البديع، ثم زاده ثروة بأسفاره إلى الأمصار المتحضرة، فبهرته المدنية الجديدة بمشاهدة عمرانها، فشغف بها، وصوَّرها أحسن تصوير، كوصفه إيوان كسرى، وبركة المتوكل، وقصر المعتز، ومجالس اللهو والخمر، أو وصفه للمناظر الطبيعية، كدجلة والربيع. حتى إن أوصافه البدوية، على ماديتها الظاهرة وضيق حدودها، وسلوكه في أكثرها مسلك من تقدمه، لا يعدوها جمال الفن ولا سيما قصيدة الذئب.

وصف الإيوان

لم يخبرنا الرواة عن السبب الذي حمل البحتري على السفر إلى المدائن حتى زار قصور الأكاسرة، وطاف بها وبكى عليها. ولكن الشاعر يذكر في مستهل قصيدته أنه شخص إليها وملء فؤاده يأس وتشاؤم، فهو حزين لأنه استبدل العراق بالشام، وهو مثقل بالهموم يشكو جفاء ابن عمه له، فسفره كان إِذَنْ لتفريج الكرب، وللترفيه عن النفس.

وكان الإيوان يوم طاف به الشاعر خرابًا، معرًّى من أثاثه، بعد أن أمر المنصور بهدمه، فأُخذ البحتري بجلال معالمه ورسومه، واجتذبته روعة الفن، فانخطف على أجنحة الخيال، وتمثلت له عظمات الأكاسرة بما عرف من أخبارهم، وشهد من آثارهم. وذكر اليمن وغارة الأحبوش عليها، وانتصار كسرى لها، ورده الملك على أميرها ابن ابن ذي يزن، فأخذ يصف الإيوان، ويتغنى بفضل الفرس الذين أيدوا استقلال بلاده.

ويقف أمام صورة تريك وقعة بين الروم والفرس في مدينة أنطاكية، فيتناولها بالوصف فتحس أن الحياة تدب فيها، ويبدو لك أنك تشاهد التحام الفرسان، ووقع الأسنَّة. وتتمثل كسرى في ثيابه الملونة يسوق الصفوف تحت رايته. وما أنت إلا منجذب مع الشاعر في خياله الجميل:

فإذا ما رأيت صورة أنطاكيَّةَ ارتعتَ بين رُومٍ وفُرسِ
والمنايا مواثل وأنوشروانُ يزجي الصفوف تحت الدِّرَفْسِ[٢٦]

فقصيدة الإيوان أبلغ مثال لدقة الوصف، وسمو الخيال عند البحتري. وقد أدهش بها معاصريه؛ لأنه فتح بها فتحًا جديدًا في الأدب، وهو البكاء على الممالك الزائلة، ووصف أطلالها الدارسة، فإذا ابن المعتز يقول: «لو لم يكن للبحتري إلا قصيدته السينية في وصف إيوان كسرى — فليس للعرب سينية مثلها — وقصيدته في وصف البركة لكان أشعر الناس في زمانه.»

غزله

ليس للبحتري غزل قائم بنفسه، وإنما هو في صدور مدائحه، فمنه تقليدي بدوي يترسم به الأقدمين من وقوف وبكاء على الأطلال، ويكثر فيه ذكر أسماء عرائس الشعر كسعاد وأسماء وليلى، وذكر أماكن البدو كنجد وإضم وخَبْت، وهذا النوع لا يطالعك بشيء طريف، ومنه الجديد المترف، وهو الذي تحس فيه نفسية الشاعر، وتلمس عاطفته المتوقدة. وفيه يصف عواطف نفسه وأهواءها، وشجونها وارتياحها، ويصف مواقف اللقاء والوداع، ومجالس اللهو والأنس، والخمرة والحبيب. ويصف استكانته للحب وخضوعه، وإذعانه لمشيئة محبوبه. وقد يتهتك في تشبيبه ولكنه لا يبلغ فيه مبلغ أبي نواس.

وأول ما عرف الحب قلب البحتري يوم تعشَّق عَلوة الحلبية، فأذكت الجذوة الأولى في فؤاده، فأذابت عاطفته على قوافيه. ثم ابتعد عنها إلى العراق، فكان لا يفتر عن ذكرها، والتشبيب بها، والحنين إليها. والظاهر أن علوة هذه كانت فتاة تيَّاهة يلذ لها العبث بقلوب الفتيان، وليس للتصون عندها حظ كبير، لذلك لم يكن حب البحتري لها عذريًّا ولا صلته بها طاهرة، حتى إذا بلغه أنها تزوجت هجاها، وأوجع عرضها، ورماها بكل شائنة. وغزله فيها يظهر لنا حقيقة هذا الحب وبُعده من العفاف.

على أن البحتري لم يقصر حبه على علوة بل أحب أشخاصًا آخرين، احتلوا فؤاده، واشتركت عاطفته فيما بينهم، فذكرهم في شعره وشبَّب بهم جميعًا.

وكأن صاحبنا لم يسعد طالعه بمن يهواهم، فابتلي بالافتراق عنهم، فكان يتشوَّق إليهم، ويتلهَّف على أيام لقائهم، فإذا لجت به الذكريات، وتغلبت عليه الأشواق، تمثلت له أخيلتهم في المنام، فإذا هبَّ من نومه، وكذبت اليقظة الحلم، تضاعف الْتِيَاعه وازداد وجده، فراح يشبب بطيف الحبيب، ويأسى على فراقه، كأنَّ الحلم حقيقة. ولما كثر ذلك منه طارت له شهرة في وصف طيف الخيال.

وغزل البحتري في أكثره لطيف ناعم، يزدان بحسن الوصف، وفيه ما يستأسر القلوب، ويثير العواطف في النفوس.

رثاؤه

كاد البحتري يحصر رثاءه في نسيب يعز عليه فقده، أو صديق يشجوه بُعده؛ فقد رثى المتوكل وكان أحبَّ الخلفاء إليه، ورثى أبا سعيد وابنه يوسف وآل حُمَيْد وجميعهم من أنسبائه، ورثى غلامه قيصر وكان يحبه، وجارية له وكان يهواها؛ لذلك جاء رثاؤه على قلَّته عاطفيًّا صادق التفجع.

على أنه لم يرث الفتح بن خاقان مع حبه له وحزنه على موته، فقد ثاب إليه رشده بعد رثائه المتوكل، فشعر بالخطر المحدق به فلم يجرؤ على رثاء الفتح؛ لأن المنتصر ادعى، بعدما بويع بالخلافة، أن الفتح قتل المتوكل، وأنه قتل الفتح ثأرا لأبيه.

وليس للبحتري غير مرثاة واحدة في المتوكل، ولكنه ظل يذكره ويذكر الفتح في سوانح شعره، ويتلهَّف على أيامهما. ولم يرثِ خليفة غيره، مع أنه شهد مقتل جماعة منهم كان متصلًا بهم يمدحهم؛ ذلك بأنه لم يخلص الحب لخليفة بعد المتوكل ولم يشأ أن يستهدف لغضب الموالي وولاة العهد، وهو يعلم أن أكثر الخلفاء الذين ماتوا في زمنه قتلوا إما بسيوف الأتراك، وإما بمكيدة يشترك فيها ولي العهد.

وأكثر مراثي البحتري يتخللها المدح، ولا سيما ما جاء في رثاء الأمراء الذين يفيد منهم، فإنه يبكي الميت ويتفجع عليه، ثم يفرغ إلى تعزية ولده أو بعض أهله فيمعن في مدحهم، فكأنه يوطئ من رثائه سبيلًا للاتصال بهم؛ فقد رثى نسيبه أبا سعيد رثاءً صادقًا لا شك فيه، ولكنه مدح في القصيدة نفسها ولده يوسف؛ ورثى وصيفًا القائد التركي، ومدح في المرثاة ولده صالحًا؛ وتجد له مديحًا في محمد بن عبد الله بن طاهر أدمجه في رثائه لأخيه طاهر وعمه الحسين.

ويستهل مراثيه على الغالب بتعظيم الخَطب وإكباره، وذم الدهر والتوجع من صروفه ونوائبه. ومما يؤخذ عليه في رثاء النساء أن المرأة مضعوفة عنده، فهو يرى فيها رأي الفرزدق زاعمًا أنها أهون ميت على الرجل، وأن البكاء عليها عيب وغضاضة. ولعله يتكلم بلسان عصره، فإن المرأة كانت يومئذ ذليلة الجانب، محتقَرة المكان، فمن ذلك قوله يعزي نسيبه أبا نهشل الطُّوسي عن ابنة افترطها:

ولعَمْري ما العجز عنديَ إلا أن تبيتَ الرجالُ تبكي النساءَ

وقوله مستندًا إلى حديث لا ندري مبلغ صحته:

ومن نعم الله لا شك فيه حياة البنين وموت البناتِ
لقول النبي عليه السلامُ: موت البنات من المكرماتِ

عتابه

برع البحتري في العتاب، وأحسن في اللوم والاسترضاء، حتى قال صاحب العمدة: «وأحسن الناس طريقًا في عتاب الأشراف شيخ الصناعة وسيد الجماعة أبو عبادة البحتري.» ويمتاز عتابه في نعومته وتلطفه، فإنه يؤنب قليلًا، ويسترضي كثيرًا، ويلوم ولا يهدد. وإذا هدد لا يغلظ ولا يتبغض.

فخره

وله في الفخر أشياء حسنة. وأكثر مفاخره بشعره، ثم بقومه بني طيء، وربما افتخر على أنسبائه إذا لحقته جفوة منهم، فيؤنِّبهم، ويتسامى عليهم ليظهر أن حياته فخر لهم، فمن ذلك قوله من قصيدة:

ومن الأقارب من يُسَرُّ بميتتي سفهًا وعِزُّ حياتهم بحياتي
إن أبق أو أهلكْ فقد نلت التي ملأتْ صدور أقاربي وعُداتي

حِكَمه

وله بضاعة قليلة في الحكم لأنها ليست من طلباته، فهو يرى أن الشعر لم يُخلق للمنطق، وفي ذلك يرد على بعض لائميه:

كلَّفْتُمُونا حدود منطقكم   في الشعر يُلغى عن صدقِه كذبُه
ولم يكن ذو القروح يلهجُ   بالمنطق ما نوعه وما سببه[٢٧]
والشعر لمح تكفي إشارته   وليس بالهذر طُوِّلَتْ خطبه

ونشأته البدوية هي التي جعلته لا يأنس بالأدلة العقلية والتفكير المنطقي، ولا يرى خيرًا في الشعر إلا إذا انطلق من هذه الأغلال محمولًا على أجنحة الخيال الحر الفسيح، فجاءت حكمه على قلتها ساذجة مشتركة التفكير، تدور معانيها على ألسنة الناس، وأكثرها في شكوى الزمان.

هجاؤه

والبحتري كأستاذه أبي تمام ليس له يد طويلة في الهجاء، وبضاعته فيه نزرة، وجيِّده قليل، وكان ابنه أبو الغوث يزعم أن والده عند موته أمره بإحراق جميع ما قاله في هذا الفن ففعل. ونحن نشك في رواية أبي الغوث، ونرى أن الابن أراد أن يستر عجز أبيه، فزعم ذلك الزعم. ووصل إلينا من هجاء البحتري ما يكفي للدلالة على ضعفه في هذا النوع الذي لم يكن من مذهبه. ولما تعرَّض له ابن الرومي وأوجع عرضه لم يجرؤ على مهاجاته لعجزه عن لحاقه. وخطر له يومًا أن يرد عليه ليسكته فأهدى إليه تخت[٢٨] متاع وكيس دراهم. وضمَّ إلى ذلك بيتين سخيفين وهما:

شاعر لا أهابه   نبحتني كلابه
إن من لا أعزه   لعزيز جوابه

على أن هذا التمحل لا يستر ضعف البحتري وتقصيره عن ابن الرومي في الهجو. وكان ابن الرومي يعرف ذلك فيه، فقد ذكر المَرزُباني في موشحه أنهما اجتمعا مرة، وكان اجتماعهما سببًا للمودة بينهما، فقال البحتري: «عزمت على أن أعمل قصيدة في الهجاء.» فقال له ابن الرومي: «إياك والهجاء يا أبا عبادة، فليس من عملك وهو من

عملي.» فقال له: «نتعاون.» وعمل البحتري ثلاثة أبيات، وعمل ابن الرومي ثمانية، فلم يلحقه في صنعه.

ولكن البحتري كان يهاجم الشعراء المغمورين فيهجوهم غير خائف شرهم. وصب أكثر هجائه على الطبقة العالية من الناس، حتى إنه هجا أربعين رئيسًا من الذين مدحهم وأخذ جوائزهم؛ منهم خلفاء ووزراء وقواد وكتَّاب وقضاة وولاة ومن جرى مجراهم من الكبراء.

وهو في هجائه فاحش متعهِّر، بذيء الألفاظ، يجعل مهجوِّيه على الغالب مخنثين فاقدي النخوة والحياء. ولم يجد له صاحب الأغاني غير قصيدتين جيدتين في الهجو إحداهما في أبي قماش، والثانية في يعقوب بن الفرج النصراني. والأولى فيها شيء من مذهبه في الوصف والتصوير، ولكنها لا تجعل منه شاعرًا هجَّاءً على كل حال.

ما أُدرك عليه

قال الآمدي في موازنته بين الطائيين: «وما رأيت شيئًا مما عِيب به أبو تمام إلا وجدت في شعر البحتري مثله. إلا أنه في شعر أبي تمام كثير، وفي شعر البحتري قليل.» وقد صدق الآمدي، وإن يكن تعصبه على أبي تمام لا يحتاج إلى دليل، فالبحتري وقع في مثل ما وقع فيه أستاذه، فروي له شعر مسروق جعله ابن أبي طاهر ستمائة بيت منها مائة مسروقة من شعر أبي تمام. وسواء صح هذا العدد كله أو بعضه فالأستاذ فاق بالسرقة تلميذه. وخصوصًا إذا نظرنا إلى ما ترك أبو عبادة من الشعر الكثير الذي يبلغ ضعفي شعر أبي تمام، ثم إلى المعاني المشتركة التي سَرَّقوهُ إياها وهي لا يستقل بها شاعر دون آخر، فمما أخذه من أبي تمام وحسَّنَه قوله:

ولو أنَّ مشتاقًا تكلَّفَ غير ما — في وُسعه لسَعَى إليك المنبرُ

وقال أبو تمام:

ديمةٌ سمحةُ القِيادِ سكوبُ — مستغيث بها الثرى المكروبُ
لو سعت بُقعةٌ لإعظام نُعمى — لسعى نحوها المكان الجديبُ

وقوله وقصر فيه عن أستاذه:

ولن تستبين الدهر موضع نعمةٍ إذا أنت لم تدلُلْ عليها بحاسدِ

وقال أبو تمام:

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ طويت أتاح لها لسان حسودِ

وأُدرك عليه معانٍ لم يوفق في استخراجها. فمنها ما كان ضعيف المدلول. ومنها ما خالف فيه أدب الشعر كقوله يمدح المعتز بالله:

لا العَذْل يردعه ولا التعنيف عن كرم يصدُّهْ

وهذا على رأي الآمدي من أهجن ما مدح به خليفة وأقبحه. ومن ذا يعنف الخليفة أو يصده؟ إن هذا بالهجو أولى منه بالمدح.

وهو كأستاذه يحتذي مثال الأقدمين في إشباع الحركات حتى يخرج منها حرف لين، وهذا الزحاف نفر منه جمهور الشعراء المولَّدين، وإن أجازه أصحاب العَروض. على أن البحتري لم يتورط فيه تورط أبي تمام.

ولا يخلو شعره من أبيات فيها ضعف وإسفاف. وقد تمر بألفاظ تنكر عليها الفصاحة، وتعجب أن يكون البحتري صاحبها، فمن ذلك استعماله فعل اختشى، وهذا غير مسموع، كقوله في مدح ابن الفيَّاض:

يختشي زلة الخِطار وأرجو عودةً من عوائد الله تُمنى[٢٩]

ويمكننا أن نعزو هذه الأشياء إلى إكثاره من النظم، ثم إلى اختلاف الروايات فإنها حملت عليه أقوالًا منحولة، فنسبت إليه على براءته منها.

ومهما يكن من شيء فإن الذي أُدرك على البحتري يكاد لا يذكر بالإضافة إلى غزارة شعره.

(٢-٣) منزلته

نُسِبَ إلى أبي العلاء المعري أنه قال: «أبو تمام والمتنبي حكيمان وإنما الشاعر البحتري.» ومنهم من يضيف هذا القول إلى المتنبي نفسه فيزعم أنه قال: «أنا وأبو تمام حكيمان وإنما الشاعر البحتري.» وكلا الأمرين عندنا مشكوك فيه؛ لأنه إما مخالف لعقيدة أبي العلاء في شاعرية أبي الطيب وقد كان يسميه وحده الشاعر ويسمي غيره من الشعراء باسمه كما قال ابن الأثير، وإما مخالف لعقيدة أبي الطيب وإيمانه القوي بشعره. على أن البحتري أصح من أبي تمام طبعًا، وأقلُّ تكلفًا، وأوضح الثلاثة ديباجة، وأكثرهم انسجامًا، وأسلمهم من الغموض والتعقيد؛ ذلك بأن نشأته البدوية جعلته لا يحتفل بالمعاني الفلسفية والأدلة العقلية، ولا يتورط في التزام البديع؛ لأنه يخالف أذواق أهل البادية المطبوعين على الشعر. ولا يسرف في طلب الغريب؛ لأن معرفته ليست فضيلة عند البدو كما هي فضيلة عند الحضر. فكل بدوي يعرف الغريب، ولا يعرفه كل حضري؛ لذلك كان البحتري يحذفه وينفيه عن شعره ليقربه من أفهام ممدوحيه إلا أن يأتيه طبعه باللفظة بعد اللفظة في موضعها من غير طلب لها، فأوتي ديباجة رائقة، قلما ظفر شاعر بمثلها حتى ضُرب المثل بها فقيل ديباجة بحترية، وشُبه شعره لأجلها بسلاسل الذهب؛ لتناسقه، وتماسكه، ورونقه، وحسن انسجامه. واتُّخذ طرازًا أعلى للطريقة الشامية التي شغف بها الصاحب بن عباد، وحث الناس على رواية أشعار أصحابها. وكأنما شعره وضع للغناء؛ لما فيه من إيقاع وترجيع، ومزاوجة ألفاظ ومطابقتها، ثم لما فيه من الطراوة والرقة، والبعد من التداخل، على خفة في المعنى وقرب متناوله.

وكان إذا تشبه بأستاذه فطلب المجاز والبديع يحسن اختيار الألفاظ وتأليفها، ويجعل استعاراته وتمثيلاته، وجناساته ومطابقاته، نازلة في منازلها، لا تستخدم المعنى، وإنما تزيده تصويرًا ورونقًا. وكأن وصية أبي تمام له أثَّرت فيه أحسن تأثير فاهتدى بهديها، فأنقذ شعره من الشوائب التي علقت بشعر أستاذه، فإذا هو كما أوصاه: «يتقاضى المعاني، ويحذر المجهول منها، ولا يشين شعره بالألفاظ الزرية.» وشهد له أبو تمام فقال: «أنت أمير الشعراء بعدي.»

ويرى طائفة من أهل الأدب أنه لم يأتِ بعد أبي نواس من هو أشعر من البحتري، ولا بعد البحتري من هو أطبع منه على الشعر. وذكر الآمدي في موازنته أن أبا عبادة قد

أسقط في أيامه أكثر من خمسمائة شاعر وذهب بخبرهم، وانفرد بأخذ جوائز الخلفاء دونهم.

وإذا صح أن إنشاء الأديب صورة لنفسه، فشعر البحتري بما فيه من ديباجة رائعة، وخيال جميل، وغزل لطيف، يجعلنا نشك في ما يزعمه بعض الرواة من أنه كان وسخًا بغيضًا، فأناقة عباراته لا تدل على قذارة آلته، ورقة ألفاظه ولطف معانيه لا يلائم غلاظة طباعه.

وما أدراك أن أولئك الذين شنَّعوا عليه كانوا من خصومه، فأرادوا إسقاطه ليفضلوا صاحبهم أبا تمام، ونحن نرى غيرهم من الرواة لا يصفونه بمثل هذه الأوصاف، بل ينعتونه بحسن الخلال. ومهما يكن الأمر فشعر البحتري يجعل صاحبه محببًا إلى النفوس، ولا يرسم لنا تلك الصور الممقوتة التي يرينا إياها بعض الرواة.

والخلاصة أن البحتري يتحلى بجمال الديباجة، وبراعة الوصف والتصوير، ولا سيما وصف الطبيعة ومظاهر العمران، يسمو به خيال لطيف، يسبح في سماء صافية الأديم، معطَّرة الأرجاء، عليلة النسيم. وهو زعيم الطريقة الشامية، وفي طليعة من قال مدحًا في خلافة العباسيين، ومنزلته في الطبقة الأولى بين الشعراء المولَّدين.

(٣) ابن الرومي ٨٣٥–٨٩٦م/ ٢٢١–٢٨٣هـ (؟)

(٣-١) حياته

أبى المؤرخون الأوائل أن يتركوا لنا ترجمة وافية لابن الرومي، فلم يدونوا إلا أخبارًا متقطعة الأوصال ليس فيها غناء كبير للباحث في الآداب، فهم يعلموننا أن اسمه علي بن العباس بن جُرَيْج أو جورجيس. وأن لقبه ابن الرومي، وكنيته أبو الحسن. وأنه مولى لعبيد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور أحد الأُمراء العباسيين، وأنه ولد في بغداد وبها نشأ. وهنا تنقطع سلسلة أخباره فما تجد منها غير نتف لا لحمة بينها ولا سدى. حتى إذا بلغنا خبر موته علمنا أنه مات مسمومًا سمَّه القاسم بن عبيد الله الوهبي وزير المعتضد. وكان هذا الوزير ظلَّامًا عاتيًا، فخاف أن يهجوه الشاعر لما عرف من فلتات لسانه، فدس عليه من أطعمه خُشْكنانجة[٣٠] مسمومة فمات بها. وكانت وفاته في بغداد ودفن في مقبرة البستان.

ويزيد ابن خلكان على هذه الرواية قوله: «فلما أكلها أحسَّ بالسم فقام؛ فقال له الوزير: «إلى أين تذهب؟» فقال: «إلى الموضع الذي بعثتني إليه.» فقال له: «سلِّم لي على

والدي.» فقال له: «ما طريقي على النار.» وخرج من مجلسه وأتى منزله، وأقام أيامًا ومات.» ا.هـ.

ولكن هذا القول مضعوف بدليل أن والد القاسم مات بعد ابن الرومي ببضع سنوات، فلا معنى لقول القاسم: «سلم على والدي.» ويؤيد ذلك رواية لابن رشيق في العمدة تطلعنا على أن عبيد الله أبا القاسم هو الذي أوعز إلى ولده بأن يتخلص من الشاعر؛ لأن لسانه أطول من عقله.

ولئن بخس المؤرخون حق ابن الرومي فلم يعنوا بجمع أخباره فقد كان الشاعر أحرص منهم على ذلك، فجاء شعره تاريخًا صادقًا لحياته، وصورة ناطقة بأخلاقه وصفاته، فإذا أردت حقيقة نسبه فهو رومي من ناحية أبيه، وفارسي من ناحية أمه:

كيف أُغضي على الدَّنِيَّة والفُرْ سُ خُئُولي والروم أعمامي

وإذا أردت ولاءه فهو عباسي:

قومي بنو العباس حلمُهُمُ حلمي كذاك وجهلهمْ جهلي
مولاهمُ وغَذِيُّ نعمتهم والروم حين تَنُصُّني أصلي[٣١]

ويخبرنا في شعره أنه عاش فقيرًا ضيق العيش:

أيلتمس الناس الغِنَى فيصيبهم وألتمس القوت الطفيف فيلتوي؟

يستجدي الكساء ليقيه قُرَّ الشتاء، فيماطل حتى يخشى أن يأتي الصيف قبل أن يُعْطَى بغيته فيقول:

إنك إن ماطلتني المواعدا وأضرم الصيف الأجيج الصاخدا[٣٢]
جاء الكساء عند ذاك باردا

وتركبه الديون فيتذمر على الوزير ويشكو إليه:

وارتكاب الديون إياي في ظلِّـ ـك يهجوك باللسان الفصيحِ

ويستعطي درهمين من كل صديق ليسد عوزه:

ليَ في درهمين في كل شهرٍ من فِئَامٍ ما يطرد الحوجاءَ[٣٣]

ولكن أصحابه كانوا يعرضون عنه أكثر الأحيان، ولا يلبون نداءه، فيعاتب ويؤنب ويهجو.

على أن الشاعر لم يعش طول حياته معدمًا محرومًا، فقد كانت تمر به أوقات يلهو بها وينعم، ثم لا تلبث أن تمضي سراعًا، فيعود إليه بؤسه. وكان له ضيعة فخانه الحظ فيها، ولم تُجدِه فتيلًا:

أعاني ضيعةً ما زلتُ منها بحمد الله، قِدمًا، في عَنَاءِ

وجمع ثروة فالتهمت منها النيران:

حُدُوث حوادثٍ منها حريقٌ تحيَّف ما جمعتُ من الثراءِ[٣٤]

وكان له دار فاضطره بعضهم إلى بيعها:

ولي وطن آليت أن لا أبيعَهُ وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا[٣٥]
وقد ضامني فيه لئيم، وعزَّني وها أنا منه مُعْصِمٌ بحبالكا[٣٦]

وتملَّك دارًا أخرى فغصبته إياها امرأة فراح يتظلم إلى الوزير القاسم:

تهضَّمُني أنثى، وتَغْصِب جهرةً عَقاري، وفي هاتيك أعجَب مُعْجِبِ![٣٧]

فكل ذلك يدل على أن الشاعر عاش مضعوفًا مهينًا، وحالفه الشقاء ونكد الطالع، فلم يبتسم له الدهر إلا ساخرًا منه؛ فقد لقي من الناس تحرشًا وشرًّا، وخذله أصدقاؤه

وابتعدوا عنه، وأقصاه الملوك ولم يقربوه؛ فعاش خاملًا، مضطهدًا، متنقَّصًا، ضيِّق الرزق، كثير العوز، وأصيب بأولاده الثلاثة وامرأته وأمه وأخيه، فمات وهو على أشد ما يكون من البؤس والتطير.

واختُلف في تاريخ موته، فقيل إنه كان سنة ٢٨٢هـ، وقيل سنة ٢٨٣، وقيل بل سنة ٢٧٦. ولكن ابن الرومي يخبرنا في شعره أنه بلغ الستين:

طرِبْتَ ولم تطرَبْ على حين مَطْرَبِ وكيف التصابي بابن ستين أشيبِ!

فبلوغه الستين ينفي قول من زعموا أنه مات سنة ٢٧٦، ويؤيد التاريخين الآخرين؛ لأنه لا خلاف في تاريخ ولادته، فوفاته إذن بين السنة الثالثة والثمانين والرابعة والثمانين بعد المائتين، فيكون قد أدرك تسعة خلفاء أولهم المعتصم وآخرهم المعتضد، ولكنه لم يتصل بواحد منهم.

صفاته وأخلاقه

يصف ابن الرومي نفسه في عدة مواضع من شعره، فيرينا أنه كان في صباه جميل الوجه، أبيض اللون، أسود الشعر، حسن القامة معدولها. ولكنَّ هذا الجمال لم يلبث أن خبا نوره؛ لاستهتاره بالملذات، فاصفرَّ وجهه وتجعَّد، وتقوَّس ظهره، وضعف سمعه وبصره، ووهنت قواه، ونحل جسمه واستدقَّ:

سُلِبْتُ سوادَ العارضَيْن وقبلَهُ
بياضَهُما المحمودَ، إذ أنا أمردُ[٣٨]

* * *

وأضحت قناة الظهر قَوَّس متنُها
وقد كان معدولًا، وإن عِشتُ فَخَّخَا[٣٩]
وأحدث نقصانُ القوى بين ناظري
وسمعي، وبين الشَّخْصِ والصوت، بَرْزَخَا[٤٠]

* * *

أنا من خف واستدقَّ فما يُثْقِلُ
أرضًا، ولا يسدُّ فضاءَ

* * *

شُغِفْتُ بالخُرَّد الحسان وما
يصلح وجهي إلا لذي وَرَعِ[٤١]
كي يعبدَ اللهَ في الفلاة ولا
يشهد فيه مساجدَ الجُمَعِ[٤٢]

وعلا رأسَه المشيبُ وله من العمر إحدى وعشرون سنة. وأصيب بالصلع، فاتَّهم عمامته، ولكنه أبى خلعها لتستر صُلعته:

فظُلم الليالي أنَّهنَّ أشَبْنَنِي لعشرين يحدوهن حَوْلٌ مُجَرَّمُ[٤٣]

* * *

عزمت على لُبسِ العِمامة حيلةً لتستر ما جرَّت عليَّ من الصَّلَعْ

وكان مضطرب المشية يهتز كالغربال في يد المغربل:

إن لي مشية أُغَرْبِلُ فيها آمنًا أن أُساقط الأسقاطا[٤٤]

وهو إلى ذلك دقيق الحس، عصبي المزاج، تغلب عليه السوداء، فيثور، ويشتد غضبه ويسلط لسانه إذا عبث به عابث، ولكنه سريع الرضا، صفوح إذا استُرضي. وكان يحب الحياة ويتعشَّقها مع ما لقي فيها من بؤس وشقاء. والحياة عنده لذة يتطلبها ويستمتع بها. واللذة عنده شهوة إلى الجمال يتبعه أينما بدا له، فيستعذبه في وجوه المِلاح، وفي أصوات المغنين والقيان، وفي الطبيعة وما عليها من صور وألوان. واللذة عنده شهوة إلى المآدب، فهو منهوم لا يشبع من طعام وفواكه وشراب.

وطلبه لهذه الملذات على فقره وحرمانه جعله يحسد كل ذي نعمة، فيتمناها لنفسه، ويستكثرها في صاحبها، وجعله يلحف في السؤال، ويعاتب ويتذلل حتى يتبغَّض.

وكان على حبه للتكسب يجبن عن إدراك رزقه، فقد يدعوه بعض الأمراء فما يجرؤ أن يصير إليه؛ لأنه يخشى الأسفار ويخيفه البر والبحر والصيف والشتاء، فهو موسوس ضعيف العقل، متشائم، متطير.

وزاده طيرة ما ناله من الأرزاء والمحن، فأصبح يتوهم النحس توهمًا، ويتمثله في تصحيف الأسماء وقلبها وتحليلها، وفي صور الأشخاص، وأشكال الأشياء، حتى بات الناس يضحكون منه، ويعابثونه، فيهجوهم، ويثخن في أعراضهم ويسخر منهم، وهم يمعنون في نكايته ولا يبالون. ذكر صاحب معاهد التنصيص: «أن أصحابه كانوا يرسلون إليه من يتطير من اسمه فلا يخرج من بيته أصلًا، ويمتنع من التصرف سائر يومه. وأرسل إليه بعض أصحابه غلامًا حسن الصورة اسمه حسن، فطرق الباب عليه، فقال: «من؟» قال: «حسن.» فتفاءل به وخرج، وإذا على باب داره حانوت خياط قد صلب عليها درفتين كهيئة اللام ألف. ورأى تحتها نوى تمر فتطيَّر وقال: «هذا يشير بأن لا تمرَّ.» ورجع ولم يذهب معه. وكان الأخفش الأصغر علي بن سليمان يقرع عليه الباب إذا أصبح، فإذا قال: «من القارع؟» قال: «مرة بن حنظلة» ونحو ذلك من الأسماء التي يتطير بذكرها، فيحبس نفسه في بيته، ولا يخرج يومه أجمع.» ا.هـ. وأخبار ابن الرومي في الطيرة كثيرة نكتفي بما ذكرنا منها للدلالة على وسوسته وجبنه واختلاط عقله.

ومن صفاته الحسنة أنه كان صادق المودة لأصحابه، محبًّا لأولاده وأهله، عطوفًا على الفقراء والمساكين.

آثاره

لابن الرومي شعر كثير رواه عنه المسيِّبي.[٤٥] ولم يكن مرتبًا فعمله الصولي على الحروف، وجمعه أبو الطيب وراق بن عبدوس من جميع النسخ، وزاد على كل نسخة مما هو على الحروف وغيرها نحو ألف بيت. وذكر المستشرق كليمان هيوار أن أبا عثمان سعيدًا الخالدي من العلماء المتصلين بسيف الدولة كتب ترجمته مفصلة، ولكن لم تصل إلينا.

وبقي شعره متفرقًا في كتب الأدب حتى قام بعض الأدباء في مصر، فعنوا بطبعه ونشره. وعني بدراسته جماعة، منهم عباس محمود العقاد فإنه وضع كتابًا خاصًّا به، فهذا الشاعر الذي أهمله عصره، وتنكر له أبناء زمانه، عُرِفَ قدره بعد موته فدونت أشعاره، وجمعت أخباره. ونبشت آثاره فإذا هي عنوان العبقرية والنبوغ.

ولابن الرومي بقايا في النثر منها رسائل صغيرة إلى الوزير القاسم وإلى بعض أصدقائه، ومنها نبذة في تفضيل النرجس. ونثره حسن الأسلوب يجري به مع بلغاء الكتَّاب. وكان يفتخر بنثره كما يفتخر بشعره مشبهًا نفسه بالأخطل والجاحظ:

ألم تجدوني آلَ وهب لمدحكم بشعري ونثري أخطلًا ثم جاحظا؟

(٣-٢) ميزته

هذا شاعر حاول التكسب بشعره فلم يفلج سهمه، وقلَّت حظوته فما أُتيح له أن يرضي ممدوحيه فيرضوه، فعاتبهم واستعتبهم، فما أجداه العتاب، ولا أُعطي العتبى، فسخط وهجا، وانتقم أخبث انتقام.

هذا شاعر تنكر له الدهر، وقعد به الجَدُّ، وأزرى به معاصروه، وصفرت كفه، فقادته مضاضة الفقر إلى ذل السؤال، فألح وألحف، فنهر ورُدَّ، وليس للملحف غير الرد.

هذا شاعر أحب الحياة ونعيمها، فتهالك على شهواتها وملاذها، فأذاقه الله لباس الجوع، فإذا هو منهوم لا يشبع، يرى الدنيا وما فيها لذة واستمتاعًا.

هذا شاعر كتب الشقاء له في لوح الأقدار، فقد ارتزق فلم يُرزق. واشتهى فحُرم. وأحب فنُبذ. وطلب الراحة في ظل عيلته، فمات أولاده، وماتت زوجه، ومات أخوه، وماتت أمه. وغُصبت داره. وبقي وحده حيًّا يشقى، فتشاءم وتطير، فسخر الناس به، وقالوا: مجنون موسوس. وقد صدقوا، فابن الرومي لم يسلم من اختلاط في عقله يرفده الشقاء، وتشده الخيبة. ولكن الشاعر مدين بعبقريته لجنونه وشقائه وخيبته؛ فلو لم يطَّرِحْه الناس، وينكروا عليه غرابة أطواره، ولو لم يخفق ويتعس ويتألم، لشغل شعره بالمديح وما يشبه المديح، ولما جاءنا بهذه الآيات البينات التي صور بها عواطف نفسه، وأخلاق أهل زمانه، وصور الأشياء التي رغب فيها وأحبها وظل طوال عمره يشتهيها، والأشياء التي كرهها ونفر منها وتطير.

مدحه

لم يمدح ابن الرومي من الخلفاء الذين عاصرهم غير المعتضد، وليس له فيه شيء يعتد به؛ لأنه لم يحظَ عنده، ولكنه مدح جماعة من الوزراء والأمراء، فوفق لشيء من الإجادة.

وأشهر ممدوحيه إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد، ومحمد بن عبد الله بن طاهر صاحب شرطة بغداد وأمير خراسان، وأخوه عبيد الله بن طاهر، وكانت له ولاية الشرطة بعد أخيه، والقاسم بن عبيد الله الوهبي وزير المعتضد.

على أن مدائحه فيهم لم تكن لتغنيه من فقر؛ لأنهم لم يحسنوا صلاته، ولم يقربوا مكانه، وربما أقصوه عنهم أو سمعوا شعره دون أن يجيزوه عليه. وغير عجيب أن يخفق عندهم، وهو على اضطراب عقله، وضيق أخلاقه، وسلاطة لسانه، وسوء تصرفه في مصاحبة الناس، لا يصلح للمجالس فيتخذ نديمًا. وكان إلى هذا شديد الإلحاف، فتبرموا به وحرموه، فآلمه ذلك لأمرين: أحدهما حاجته إلى المال، والآخر ذهاب شعره ضياعًا؛ فإنه كان مفتونًا بلذة الحياة ونعيمها فلم يقدَّر له من الرزق ما يشبع به شهواته، وكان حريصًا على شاعريته فأمضَّه أن يبخس حقها، فكثر عتابه لممدوحيه، وأرهقهم بالسؤال والاستعطاف حينًا، وبالتأنيب والتهديد آخر. وقد يعتد بنفسه فيطلب أن يكون نديمًا لهم يحضر مجالس اللهو معهم، أو كاتبًا في دواوينهم تُستودع عنده أسرارهم، فيرتد خائبًا مزبونًا، يتظلم ويشكو.

وكيف يفلح شاعر مثله، وهو لا يحسن المدح إلا إذا سأل وعاتب وهدد. ولم يكن له من ظرف اللسان، وحميد المخالقة، ورجحان العقل ما يحببه إلى الأُمراء فيرغبوا في مجالسته ومنادمته. وكانت طيرته عونًا عليه، فازداد بها بؤسًا وخيبة؛ لأن وسواس عقله جعله جبانًا قلق النفس، مروَّع الفؤاد يتخوَّف أشياء يتوهمها توهمًا، فإذا دعاه أمير أن يتجشم إليه السفر ليسمع شعره ويثيبه، أبى أن يذهب خوفًا من مشاق البرِّ وغرق البحر، وطلب إليه أن يجيزه دون أن يركبه هذا المركب الخشن. ولعل معاصرته للبحتري أضرت به، وغمرته عند الأمراء؛ لأنه مدح أكثر الذين مدحهم أبو عبادة، فلم يحفلوا به ولا التفتوا لفته، مع أنهم أكرموا البحتري وخصوه بسني الجوائز. ويرجع ذلك إلى أن الوليد أبرع منه في المدح، وأرصن في المجالس وأعقل، وأحسن تصرفًا في استرضاء ممدوحيه.

هجوه

لابن الرومي شهرة في الهجاء لا تتقدمها شهرة دعبل وبشار. ويفوقهما بما امتاز فيه من دقة التصوير، فإن هجاءه لا يقتصر على القذف والطعن والسخر، بل يتعداه إلى وصف أخلاق المهجوِّ، وتصوير أشكاله حتى يبرزه مُثلةً شوهاء مضحكة.

وبواعث الهجاء عند الشاعر كثيرة، فمنها أنه كان محرومًا يستجدي فلا يُعطَى إلا القليل، فيغضب ويهجو من يمنعون صلتهم عنه. ومنها أنه كان يحسد ذوي النعمة الذين يتمتعون بملاذ الحياة دونه فيهجوهم. ومنها أن الناس كانوا يعلمون ضيق أخلاقه، وغرابة أطواره، فيعبثون به ويضايقونه، ويعيبون شعره وينتقدونه، فيثور ثائره ويهجوهم. ومنها أنه كان دقيق الحس ينفر من الأشياء التي لا تلائم طبعه، ولا يستاغها ذوقه، فيذمها كما في هجائه لصاحب اللحية الطويلة، والغناء القبيح. ومنها أنه كان شديد الطيرة يتوهم النحس في الأشخاص والأسماء والعاهات والعيوب، فهجا كل شيء يتطير منه. ومنها أنه كان شرهًا منهومًا لا يصبر عن الطعام، فإذا جاء رمضان تضايق من الصوم فهجاه. ومنها أنه كان يتشيع للعلويين مع ولائه في بني العباس، فهجا العباسيين وأفحش فيهم لما رأى ما أصاب الطالبيين من التنكيل.

رثاؤه

لم يكن ابن الرومي حظيظًا عند الملوك فيتخذ الرثاء آلة للتكسب؛ لذلك قلت مراثيه، وليس له منها ما يستحق الذكر إلا الذي قاله في أولاده وزوجه وأمه وأخيه، وإلا الذي قاله في بستان المغنية وكان يهواها، وفي أبي الحسين يحيى بن عمر الطالبي؛ لأنه كان يتشيع للعلويين، فساءه أن يفتك به العباسيون وكان قد ثار بهم، فبكى عليه وهجا بني العباس وآل طاهر أعوانهم على قتله. والذي قاله في بكائه على البصرة لما دخلها الزنج سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م وأحرقوها ومثَّلوا بأهلها، فقد راعه ما دهاها وهي منبت العلماء والأدباء، وعكاظ الإسلام، فرثاها والِهًا وصوَّر خرابها أبرع تصوير.

وابن الرومي شديد التفجع على الميت إذا كان عزيزًا عليه، ولا غرو فإنه من طبيعته ضعيف الإرادة، قوي العاطفة، دقيق الإحساس، مضطرب العقل، فأخلق به أن يغلب عليه الجزع إذا رُزِئَ بمن يحبه، فيتأجج بركانًا عاطفيًّا ينفث نيرانه عن نفس يصهرها الحزن، ويضغطها التطير، ويحفزها تتابع النكبات، فتنفجر بالبكاء والأنين. وأحسن مراثيه قصيدته في ولده الأوسط واسمه محمد، وقد مات منزوفًا وهو لم يزل طفلًا، فهي من أفجع ما قال والد في رثاء ولد، وهي تصور جزع الشاعر أدق تصوير، وتخرج مشهدًا تامًّا عن حياة طفله ومرضه وذبوله وموته.

وابن الرومي على تفجعه لا يرثي فقيده غير مرة. وقلما جاوزها إلى المرتين أو الثلاث شأنه في رثاء أمه وامرأته؛ مما يدل على أن الحزن لا يلح عليه طويلًا، وإنما

تحرقه الجمرة ساعة سقوطها، ثم لا تلبث أن تنطفئ فينسى أو يتناسى. ولعل هذا راجع إلى تقلب طباعه، واضطراب مزاجه، وسرعة تنقله من حال إلى حال، أو راجع إلى توالي المصائب عليه، فإن حرمانه وخسرانه، ثم موت أمه وأخيه، ثم موت أولاده وزوجه لا بد أن يجعل في نفسه شيئًا من الاستسلام والقنوط، فيصبح وهو أليف الأرزاء والتطير، يتوقع كل يوم رزءًا جديدًا، فينسى الماضي لاشتغال فكره بتنظر الآتي.

غزله

كان ابن الرومي تِبْع جمال يجري وراءه طلبًا للذة فهي عنده زينة الحياة الدنيا، ولا بهجة للحياة بدونها، فأفرغ ماء شبابه على أشواك شهواته. وما راعه إلا بارقة البياض تلوح بمفرقه، فبكى على الصبَى وتلهَّف، وذم المشيب وهجاه. وهو لم يأسف على فراق الشباب إلا لأنه سيفارق اللذة بعده. وما كان ليحب ويعشق لولا التهالك على اللذة والاستمتاع. ومثل هذا الحب تغمره المادة، وتسيطر فيه على الروح فينحط بصاحبه إلى الدنايا، ويجعل المرأة أداة للهو والتسلية، ويهبط بها عن عرشها السامي الذي رفعه الله لتوضع عليه.

وصاحب هذا الحب لا يتعشَّق شخصًا واحدًا فيقف فؤاده على حبه، وإنما لذته في التنقل، فكلما بدا له وجه جميل افتتن به، وجدَّ في أثره. وهيهات أن يطمئن إلى معاشرة الحرائر المحصنات، أو يكتفي بزوج أمينة وديعة يسكن إليها، ويغض طرفه عن سواها، فابن الرومي بقي مدة طويلة لا يأنس بالحياة الزوجية، ولا يتغزل إلا بالقيان والغلمان، ولا يجد اللذة إلا في مكانس الريب وحوانيت الخمَّارين، حتى نفدت قواه أو كادت، فتزوج، وكان زواجه في أواخر كهولته، فرزق أولادًا ضعاف البنية، فلم تُكتب لهم الحياة.

وليس لشاعرنا غزل كثير على شدة شغفه بالجمال؛ لأن الحب لا يؤثر في نفس طالب اللذة تأثيره في نفوس المتيَّمين، ولا يمتزج بها إلا أوقاتًا معلومة يموت في خلالها حينًا ثم ينبعث ويحيا، ثم يموت. ويغلب على غزل ابن الرومي وصف القينة والساقي ومجلس لهوه، وتجد هذا الغزل في صدر أهاجيه كما تجده في صدر مدائحه.

وهو في تهافته على اللذة لا يُشفى فؤاده إلا إذا استوعبها من أقصى قراراتها، فيودُّ لو أنه يستغرق في ذات من يهواه فتمتزج روحه بروحه، حتى لتظنه من أصحاب مذهب الاتصال الذين يزعمون أنهم يستغرقون في ذات الله سبحانه وتعالى عما يأفكون:

كأن فؤادي ليس يَشفي غليلَه　　　سوى أن يرى الروحين يمتزجانِ

وصفه

والوصف عند ابن الرومي أخص ميزة يُعرف بها، فهو من أي النواحي أتيته تجده وصَّافًا بارعًا ومصوِّرًا دقيقًا. وفي شعره أوصاف جديدة لم يسبقه إليها شاعر، استمدها من حياته وتأثرات نفسه، فإنه لتطيره من المناظر القبيحة كان يتعشَّق الجمال على اختلاف مظاهره واتساع معانيه، فأحب الطبيعة ولا سيما طبيعة الربيع، فاتصل بها وجعل منها شخصًا حيًّا، مازجًا شعوره بشعورها، وأُغرم بجمالها كما أغرم بالوجه المليح، فأصبح إذا وصفها شبهها بالمرأة، وإذا وصف المرأة شبهها بالطبيعة، فمن ذلك قوله يصف الأرض في الربيع:

تبرجت بعد حياء وخَفَرْ　　　تبرج الأنثى تصدت للذكرْ[٤٦]

وكان يحب الصوت الجميل ومجالس اللهو، فوصف القينة وغناءها، والساقي وكأسه، والخمرة وآنيتها. وله براعة في نعت الصوت الحسن تدل على صحة شعوره بالفن كوصفه للقينة وحيد.

وكان له من شراهته وحرمانه ما ضاعف نهمته إلى المآدب. وأوتي معدة خبيثة لا تشبع ولا ترتوي. ولم يخطئ نعتها إذ قال فيها متلهِّفًا على أكلة:

لَهْفي عليها وأنا الزعيمُ　　　بمعدة شيطانها رجيمُ[٤٧]

ولهذا أكثر من ذكر أنواع الطعام والشراب. وهو أول شاعر — فيما نعهد — عني بوصف السمك والفراريج والبيض والقطائف والزلابية والمشمش والموز والعنب وغير ذلك من المآكل.

وهو لدقة إحساسه قوي الشعور بالشيء يستكرهه، كما أنه قوي الشعور بالشيء يستحسنه. وكان له من تطيره وضعف عقله ما جعله يكره أو يتخوف الأشياء

التي يجفو عنها طبعه، ولا يستاغها ذوقه ومزاجه، فيهجوها ويصفها فعله بالأحدب وصاحب اللحية الطويلة، وسفر البر والبحر، والقينة شُنْطُفُ، والمغني دبس لأنه استقبح صوتهما. وفِعْلَه بنفسه بعد أن شاب، وضعفت قواه، وشحب لونه، فقد أكثر من وصف مشيبه والبكاء على شبابه؛ لأنه فقد بهما لذة الحياة.

وضيق ذات يده جعله يستفيض في وصف فاقته. وقد جره فقره إلى حسد الأغنياء، فهجاهم ووصف ترفهم كما في قصيدته التي هجا بها الكتَّاب المتنعمين بأموال الدولة.

وتنكر له الناس، وعبثوا به، فحقد عليهم، ورأى الخير في الحقد فمدحه وبيَّن منافعه. وهجا الناس، ومزق أعراضهم، فحقدوا عليه، فرأى الشر في الحقد، فذمه وأظهر مساوئه وأضراره. وصوَّر أخلاق الحَقود أدق تصوير.

وكان له من حياة الزهاد تعزية وسلوى في حرمانه، وتوالي الخطوب عليه، فوصف معيشتهم وتعبدهم ولكن نفسه التي استعبدتها الشهوات لم تكن لترتاح إلى حياة المتزهدين، فتتنسك مثلهم.

ولزم بغداد فما استطاع البُعد عنها إلا غرارًا، فإذا فارقها حنَّ إليها، وصوَّر ذكرياته فيها أبدع تصوير:

بلد صحبتُ به الشبيبةَ والصِّبَى ولبِستُ فيه العيش وَهْوَ جديدُ
فإذا تمثَّل في الضمير رأيتُهُ وعليه أفنان الشباب تَمِيدُ[٤٨]

ووصف الصيد كغيره من الشعراء المولَّدين، ولكنه لم يلتزم له بحر الرجز، ولا أمعن في الغريب مثلهم.

ويمتاز وصفه في الاسترسال والتبسط، ودقة النظر، فإنه حريص على إظهار الأشياء دقيقها وجليلها، متفنِّن في إبرازها وتصويرها، سواء عليه أبِتَشْبيه كانت أم بغير تشبيه وبتمثيل أم بغير تمثيل. وكثيرًا ما يتتبع المعنى ويستقريه حتى يستتمه ويستوفيه، ويظهره على حقيقته لا غلو فيه ولا تمويه.

آراؤه وعقائده

ذكر أبو العلاء المعري في رسالة الغفران أن ابن الرومي كان يتعاطى الفلسفة. وفي شعره أمثلة تدل على أنه كان ملمًّا بعلوم عصره، واقفًا على الفلسفة اليونانية والآداب

الفارسية. ولكن ذلك لم يجعل منه مفكرًا ذا مذهب معروف، وإنما جعله صاحب آراء وعقائد لا تخلو من التناقض لما كان عليه من اضطراب العقل، وغريب الأطوار، وتقلب الأفكار؛ فقد كان يتشيع للعلويين بدليل قصيدته التي رثى بها أبا الحسين يحيى بن عمر الطالبي، وهجا العباسيين من أجله وأفحش فيهم. ثم كان يقول بمذهب المعتزلة والقدرية معًا، وقد يميل إلى الجبرية مع بعدها عن القدرية، فمن ذلك قوله في الاعتزال:

أأرفض الإعتزال رأيًا؟ كلا! لأني به ضنين

وقوله في القدرية:

الخير مصنوع بصانِعِهِ فمتى صنعت الخير أعقبكا[٤٩]
والشر مفعول بفاعِلِهِ فمتى فعلتَ الشر أعطبكا

ومن قوله في الجبرية وقد أوجعه ترف الكتَّاب وحياتهم الناعمة بين القيان:

لو ترى القوم بينهن لأجبرْ تَ صُراحًا، ولم تقل باكتسابِ[٥٠]

ولهذا اعتقد بالحظ، وقوي إيمانه به:

إن للجَدِّ كيمياءَ إذا ما مس كلبًا أحاله إنسانا

واعتقاده بالحظ جعله ينيطه بطوالع الكواكب شأن أبناء عصره.

وكان يقول بالطبيعتين،[٥١] فطبيعة الخير في النفس لأنها سماوية، وطبيعة الشر في الجسم لأنه أرضي، والشر كامن في الأرض كمون اضطرار وجبر، والأرض مضطرة إلى قبوله، مجبرة عليه؛ ولذلك يوصي الإنسان بتطهير نفسه من الطبيعة الأرضية الشريرة.

وله في الحقد رأي مختلف، فطورًا يحسنه فيُظهر فضله، وتارة يذمه فيُظهر شره. وهكذا رأيه في الجود والبخل.

وكان على حبه للحياة وملاذِّها ينظر إليها بعين سوداء؛ لكثرة ما ناله فيها من الويلات والمحن، فيرى أن بكاء الطفل ساعة ولادته إنما هو ناشئ عن خوفه من صروف الدهر، وهذا رأي ساذج كما لا يخفى، ولكنه يكشف عن نفس حزينة متألِّمة متطيرة:

لما تُؤْذِنُ الدنيا به من صُروفها　　　يكون بكاءُ الطفل ساعةَ يولدُ

وساء ظنه بالناس؛ لأنهم في زعمه لئام لا يصاحبون المرء إلا في السراء، ويتخلون منه في الضراء، فمن الخير عنده أن لا يكثر الإنسان من الأصحاب.

وكان يوصي بالصبر على شدة جزعه، ويحاول أن يقنع نفسه بأن الصبر والجزع ليسا من الطوابع المركبة في الإنسان بل هما في اختياره، يستطيع أن يتصرف فيهما كيف يشاء.

وهو على حبه للمرأة سيئ الظن بها كسائر أهل زمانه، ينعتها بالمكر والخداع والكيد، وحسبك أن تقرأ حديقة الشعر فتتبين حبه لها وضعف ثقته بها.

ما أُدرك عليه

لم يُدرك على ابن الرومي سرقات جمة مع كثرة شعره، ذلك لغزارة مادته في الاختراع والتوليد. وكان يتجنب استباحة أفكار غيره، إلا إذا اقتبسها ليولِّد منها معنى جديدًا. وكان يزدري الشعراء الذين يُغيرون على أكفان الموتى ويسلبونهم إياها، فعله بأبي عبادة البحتري، ومع هذا فلم يسلم من العثار بعض الأحايين، فمن سرقاته قوله في وحيد:

ليت شعري إذا أدام إليها　　　كَرَّةَ الطَّرْف مبدئ ومعيدُ[٥٢]
أَهْيَ شيء لا تسأم العين منه　　　أم لها كل ساعة تجديدُ؟

أخذه من قول أبي نواس:

يزيدُك وجهه حسنًا　　　إذا ما زدته نظرا

ويؤخذ عليه في بعض شعره لين قد يبلغ به حد الإسفاف، فمن غثه البارد قوله في ختام أبيات يمدح بها المعتضد:

دامت سلامته وطال بقاؤه ومع البقاء العز والنعماءُ

فهذا أشبه بختام رسالة يكتبها بعض العامة. وربما استعمل ألفاظًا عامية تنكرها الفصاحة كقوله:

لست أهجيك ما حَيِيتَ ببيتٍ وستهجوك عني الأحدوثهْ[٥٣]

فقوله: أهجيك خطأ لأنه واوي. قال الجوهري: «لا تقل هجيته والعامة تقوله.» ولم يخلُ شعره من الإقواء وزحاف الإشباع، ولكن ذلك فيه قليل.

(٣-٣) منزلته

قال العميدي صاحب الإبانة في كلامه على المتنبي: «ولا أقيسه في امتداد النَّفَس، وعلم اللغة، والاقتدار على ضروب الكلام، وتصوير المعاني العجيبة، والتشبيهات الغريبة، والحِكَم البارعة، والآداب الواسعة بابن الرومي.» وقال ابن رشيق صاحب العمدة: «وكان ابن الرومي ضنينًا بالمعاني، حريصًا عليها. يأخذ بالمعنى الواحد ويولده، فلا يزال يقلبه ظهرًا لبطن، ويصرِّفه في كل وجه وإلى كل ناحية حتى يميته، ويعلم أنه لا مطمع فيه لأحد.» وقال أيضًا: «وأما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر؛ لكثرة اختراعه، وحسن افتنانه.» وقال ابن خلكان: «صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب؛ يغوص على المعاني النادرة، فيستخرجها من مكامنها، ويبرزها في أحسن صورة، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره، ولا يبقي فيه بقية.»

فهذه الأقوال كافية لأن تعرفك منزلة الشاعر عند الأدباء المتقدمين، فتعلم أن إهمال عصره له لم يضيِّع فضله بعد موته، فقد قام أصحاب الأدب ينشرون ذكره، ويفضِّله بعضهم على أكابر الشعراء أمثال المتنبي وسواه. وقد استحق ابن الرومي هذه المنزلة لأسباب منها براعة وصفه وتصويره، ودقة نظره في مراقبة الأشياء. ومنها خصب معانيه المولدة والمخترعة، واسترساله معها حتى يستوفيها إلى آخرها، ويبرزها جلية

تامة، بأشكالها وألوانها، وصفاتها وتوابعها. وقلما غفل عن شيء منها أو مما يتصل بها مهما دقَّ شأنه، وقلَّ خطره.

واسترساله مع المعاني جعله يطيل قصائده فيبلغ بها مائتي بيت أو ثلاثمائة. وهذا الطول لم نعهده في شاعر قبله، إذا استثنينا منظومات كليلة ودمنة وما شاكلها؛ لضعف الروح الشعرية فيها. ثم إذا أنكرنا ما يزعمه الرواة من أن بعض المعلقات بلغت ألف بيت؛ لأن زعمهم يحتمل الشك أكثر من اليقين.

وتمتاز قصائده على طولها بقربها من وحدة الموضوع، فهي، وإن تعددت أغراضها أحيانًا، لا تخلو من الصلة المعنوية التي تربط أجزاءها بعضها ببعض. ولابن الرومي شعر كثير نظم في غرض واحد.

ولعل أصله الأعجمي كان له يد في طول نَفَسه، وميله إلى وحدة الموضوع، كما كان له يد في اتساق أفكاره، ودقة معانيه، وإحاطته بهنات الأمور، وخروجه إلى أغراض جديدة كوصف الأخلاق والعادات، وتصوير الأشخاص تصويرًا سخريًّا مضحكًا، وغير ذلك مما يتصل بحياة المرء في هزله وجده، وفرحه وكدره.

ويظهر اتساق أفكاره في ارتباط معانيه وأغراضه، ثم في اعتماده على الأسلوب المنطقي، فإنه اتخذه إمامًا له وعلى الأخص في احتياجه إلى الرد على خصومه ومعيِّريه، وإلى معاتبة ممدوحيه واسترضائهم، وإلى إبداء آرائه في الحياة وصروف الدهر. وتختلف أحكامه المنطقية بين القوة والضعف، فمنها ما يستقيم له ومنها ما لا يستقيم؛ ذلك أن قوة التفكير عنده تنازعها قوة العاطفة. ولا غرو فإنه موسوس عصبي المزاج سريع التأثر، فأجدر به أن يكون عبدًا للعاطفة، يستخدم منطقه لإرضائها، ومجاراة أهوائها. وحسبك أن ترى محاولته تزكية الطيرة، وإمعانه في تزيين الحقد، وتبغيض السفر، لتتبين كيف يسخِّر تفكيره لعاطفته.

وهو على قوة عاطفته وتفكيره، مديد الخيال، عميق التصور. وخياله مع اتساع مجاريه ينطلق بهدوء وانتظام، يسايره المنطق، فلا يجنح بصاحبه إلى الغلوِّ والإحالة، بل يعمد في الغالب إلى إظهار حقائق الموصوفات فيخرجها في أحسن صور وأصدق تمثيل باعثًا فيها حياة تجعلها تهتز وتتحرك، هائمًا في وادٍ كئيب تتفجر من جوانبه ينابيع الدموع، وتدمي رياحينه أشواك الشهوات والآلام. وابن الرومي أشغف الشعراء بالطبيعة وألوانها، يتصل بها ويعيش معها ويحسها إحساسًا قويًّا.

ولكن ليس لشعره على الإجمال ديباجة؛ لأن انصرافه إلى توليد المعاني واستخراجها من أبعد قراراتها، ثم اهتمامه باستيفائها وشرحها، جعله يهمل اللفظ فما يحفل به،

فإذا هو لا يعنيه إلا أن يظفر بالمعنى الطريف سواءٌ أُفرغ في القالب الجميل أو لم يُفرغ، فرويت له أبيات ضعيفة البناء لا روعة فيها ولا رونق، تخلو ألفاظها من الموسيقى الشعرية، فما تهتز لها ولا تطرب. ولولا حسن معانيها لكانت خليقة بالإغفال.

وإهماله اللفظ جعله لا يحتفل بالزخرف والتزويق، فاقتصد في استعمال البديع، وفي طلب التشابيه والاستعارات، فعرف له منها شيء قليل بالإضافة إلى كثرة شعره، ولكن قليله جيد رائع. وأجوده ما جاء من التشابيه بصورة المركب التمثيلي، فإنه غاية في الإبداع. وأكثر من استعمال الغريب لطول نفَسه، ثم لركوبه القوافي الغليظة كالثاء والخاء والشين والضاد وما أشبه، فإنه كان يرى أن المدح تسقط قيمته إذا سلكت إليه القوافي السهلة. ثم لاقتداره على ضروب الكلام، فإن تضلُّعه من اللغة جعله ينتقي اللفظ المؤدي حقيقة المعنى، ولو كان غير مأنوس، وكثيرًا ما يعمد إلى تحليل الألفاظ والتلاعب بمعاني مشتقاتها فيغث بيانه وينضب ماؤه.

على أن غريبه لم يورث شعره غموضًا لسهولة تعبيره ووضوحه، وسلامة ألفاظه من التداخل. ولم يؤثر فيه الأسلوب المنطقي كما أثر في شعر أبي تمام؛ لأنه لم يعتمد الأدلة العقلية العويصة، بل تناول منها أقربها سبلًا، وتولى في نظمه شرحها وإيضاحها. ولم يجارِ الطائي في التزام البديع، والإفراط في التجنيس والمطابقة، فيقع في التعقيد مثله ويصعب على الناس فهمه.

وعلى الجملة فابن بالرومي أطول الشعراء نفَسًا، وأكثرهم اختراعًا للمعاني، واستيفاءً لها، وأبعدهم نظرًا في وصف دقائق الأشياء، وأقربهم إلى وحدة الموضوع. وأبرع من صوَّر الأخلاق والصفات، وجعل لمهجوِّيه تصاوير هزلية مضحكة، وأصدق مؤرخ لحياته في ملذاتها وأفراحها، وفي مكارهها وأحزانها. ولئن أهمله عصره، ولم يقدره حق قدره، لقد كان على الرغم من عصره في طليعة الشعراء المولَّدين.

هوامش

(١) هذه رواية الديوان وابن خلكان. وأما رواية الأغاني فهي أن اسمه الوليد بن عبيد الله، والأولى أشهر. وللبحتري قصيدة يفتخر فيها بآبائه ويذكر معهم عبيدًا ولا يذكر عبيد الله إذ يقول:

وعبيدًا ومسهرًا وجديًّا وتدولًا وبحترًا وعتودًا

(٢) يدل على ذلك قوله:

أعمرو بن شيبان وشيبانكم أبي إذا نسبت أمي وعمركمُ عمري

(٣) منبج: بلدة بين حلب والفرات.
(٤) الخلة: الحاجة والفقر.
(٥) وظفوا له: عينوا له.
(٦) الواثق بن المعتصم بن الرشيد، خلافته من سنة ٢٢٧–٢٣٢هـ/ ٨٤١–٨٤٦م.
(٧) المتوكل بن المعتصم، خلافته من سنة ٢٣٢–٢٤٧هـ/٨٤٦– ٨٦١م.
(٨) المعتز بن المتوكل، خلافته من سنة ٢٥٢–٢٥٥هـ/٨٦٦–٨٦٨م.
(٩) المونق: المعجب.
(١٠) فأرم: فأصلح. الخلة: الثلمة. دردق: أطفال.
(١١) المعتمد بن المتوكل، خلافته من سنة ٢٥٦–٢٧٩هـ/ ٨٦٩–٨٩٢م.
(١٢) المعتضد بن الموفق بن المتوكل، خلافته من سنة ٢٧٩–٢٨٩هـ/ ٨٩٢–٩٠٢م.
(١٣) هذه رواية ابن خلكان، وفي الديوان طاهر بن إسماعيل.
(١٤) برك: إحسانك. الربا: ما يستحق للدائن على المدين من زيادة على ما يدينه إياه.
(١٥) فضل: زيادة.
(١٦) يتزاور: يميل وينحرف.
(١٧) المنتصر بن المتوكل هو الذي واطأ الأتراك على قتل أبيه، خلافته ستة أشهر من سنة ٢٤٧-٢٤٨هـ/ ٨٦١-٨٦٢م.
(١٨) المستعين بن المعتصم، خلافته من سنة ٢٤٨–٢٥٢هـ/ ٨٦٢–٨٦٦م.
(١٩) تعبد: صعب وامتنع.
(٢٠) عزالي: جمع عزلاء، وهي مصب الماء من القربة. يقال: أنزلت السماء عزاليها إشارة إلى شدة وقع المطر على التشبيه بنزوله من أفواه القرب. وقوله: وحلت من عزاليها؛ أي: حلت عقدها فتدفق ماؤها.
(٢١) الخرق: ولد الظبية الضعيف القوائم. الأحوى: ما خالط حمرته أو صفرته سواد. الأدمانة: الظبية أشرب لونها بياضًا.

(٢٢) صورًا: جمع أصور، وهو المائل.

(٢٣) حمَّلهم: كلفهم. احتملوا: تكلفوا وحملوا.

(٢٤) استعتب: استرضى. الوري: خروج النار من الزناد. الزناد: جمع زند وهو العود الذي تقدح به النار. يقول: له عزمة ناجحة لم يستبطئ الملكُ نجاحها يومًا، ولا احتاج توقدها إلى استرضاء الأيام؛ لأن الأيام طائعة لها.

(٢٥) نجرها: أصلها. إيثار: تفضيل. العتاد: العدة. يقول: إن الله يرى لها أن تجعل تفضيل التقى عدة لها.

(٢٦) يزجي: يسوق. الدرفس: العلم الكبير.

(٢٧) ذو القروح: امرؤ القيس.

(٢٨) تخت: وعاء تصان فيه الثياب.

(٢٩) الخطار: جمع الخطر. العودة هنا بمعنى: المعروف. العوائد: جمع عائدة، وهي المعروف. تُمنى: تقدر.

(٣٠) الخشكنانجة: قرص حلوى بالسمن والسكر.

(٣١) تنصني: تسندني وتنسبني.

(٣٢) الأجيج: اللهيب. الصاخد: المحرق.

(٣٣) الفئام: الجماعة من الناس، لا واحد له من لفظه. الحوجاء: الحاجة.

(٣٤) تحيف الشيء: تنقصه وأخذ من نواحيه.

(٣٥) آليت: أقسمت.

(٣٦) عزني: غلبني. معصم: ممسك. وقوله: معصم بحبالكا؛ أي متكل عليك.

(٣٧) تهضَّمني: تظلمني وتغصبني.

(٣٨) العارضين: جانبي الوجه. يقول: إنه شَابَ عارضاه ففقد سوادهما بعد أن فقد بياضهما الذي عرف به يوم كان أمرد.

(٣٩) فخخ: استرخى. يقول: إنه إذا عاش وطال عمره سيصير ظهره إلى الاسترخاء بعد تقويسه في سن الشباب.

(٤٠) البرزخ: هنا الحاجز بين الشيئين.

(٤١) الخرد: جمع خريدة، وهي البكر السَّكُوت الخفرة.

(٤٢) يقول: إن وجهه في شحوبه أشبه بوجوه النساك، يصلح لأن يعبد الله في الفلاة، ولا يصلح أن يجتمع مع الناس يوم الجمعة في المساجد، فكيف يحق له وهو في مثل هذا الحال أن يعشق الخرد الحسان؟

(٤٣) يحدوهن: يسوقهن، والمعنى يتقدمهن. حول مجرم: سنة تامة.

(٤٤) الأسقاط: جمع السقط، وهو ما أسقط من الشيء وما لا خير فيه. يقول إنه يغربل في مشيته ولكنه لا يخشى أن يسقط شيء من غرباله، كما تسقط النفاية من غرابيل المغربلين. وهنا يستتم معناه ليدل على أن غرباله مجازي لا حقيقي.

(٤٥) ورد في ابن خلكان: رواه المتنبي، وهو تحريف.

(٤٦) تبرجت: أظهرت زينتها ومحاسنها، ويريد بزينة الأرض أزهارها في الربيع. بعد حياء وخفر: أي بعد أن أخفت تبرجها في الشتاء.

(٤٧) الزعيم: الكفيل.

(٤٨) أفنان: أغصان. تميد: تميل.

(٤٩) أعقبك: جازاك بخير.

(٥٠) أجبرت: دِنت بالجبرية. صراحًا: خالصًا من كل شيء؛ أي إجبارًا صراحًا. الاكتساب: مباشرة الأسباب بالاختيار؛ أي إن الإنسان مخيَّر في كسبه لا مجبر. والاكتساب من مذهب القدرية.

(٥١) الطبيعتين: كالثنوية جاءت من الفرس، وهي أن في الإنسان طبيعة شر وطبيعة خير.

(٥٢) المبدئ: من يفعل الشيء ابتداءً. المعيد: المكرر.

(٥٣) الأحدوثة: ما يتحدث به. يقول: إن حديث الناس عنه سيهجوه بعد موته.